الطائفة السريانيّة والقنصلية الفرنساوية في بغداد

بقلم القس اسحق ارملة السرياني الكاثوليكي

يحقّ للسريان الكاثوليك في بغداد ان يفاخروا سائر الابرشيات السريانيّة الكاثوليكيّة بانضمامهم عامّةً وقبل اخوانهم في بلاد ما بين النهرين الى حظيرة الكنيسة الجامعة واعتبارهم رؤساءهم الروحيّين ومدافعتهم عنهم بغيرتهم ومالهم واصطناعهم المعروف والاحسان الى كل من قصدهم . وقد خلّفوا لهم ذكرًا طيّباً بمحاماتهم عن البطريرك مار اغناطيوس ميخائيل جروه يوم انهزم من ماردين الى بلدتهم خائفاً مذعوراً فبذلوا في سبيل إنجائه من خصومه جلّ المساعي وساعدهم على ذلك حضرة الموسيو روسو (J. F. Rousseau) قنصل الدولة الفرنساوية العامّ في تلك العاصمة . وها اننا نسرد للقرّاء تفاصيل تلك الحوادث اظهاراً لشهامة السريان البغداديين الكرماء واقراراً بفضل الدولة الفرنساوية ومعتمديها النبلاء.

١ً السريان في بغداد

ان السريان الشرقيّين او الكلدان كانت لهم الدرجة الاولى في حاضرة الخلفاء العبّاسيّين اذ كانت قاعدةً لخلافتهم او بطاركتهم في القرون المتوسّطة . وقد اورد مؤرّخو السريان الغربيّين كميخائيل الكبير وابن العبري وغيرهما أخبارهم وادمجوا فيها حوادث جماعتهم السريانيّة مُلمعين بذكر اساقفتهم وكتبتهم الذين اشتهروا برسوخ قدمهم في اصناف المعارف كلمازر برشبّا اسقف بغداد في القرن التاسع الذي عزله بطريركه ديونيسيوس التلمحري عن كرسيّه سنة ٨٢٩ ويوحنا بن ماسويه السرياني الذي اشتهر في عهد هرون الرشيد وصنّف كتباً تدلّ على طول باعه (١ ويحيى بن عديّ بن حميد بن زكريا التكريتي المنطقي نزيل بغداد اليعقوبي النحلة († ١٣ آب ٩٧٤) (٢ وابي علي عيسى ابن زرعة الفيلسوف اليعقوبيّ (٣ احد المتقدّمين في علم

١) اطلب تاريخ الدول لابن العبري (ص ٢٢٧)
٢) فيه (ص ٢٩٦) ٣) فيه (ص ٣١٥)

المنطق والفلسفة († ١٠٠٧) وغيرهم. وقد ذكر ابن العبري عينه في تاريخه البيعي السرياني اسماء غير واحد من بطاركة السريان ومفارنتهم الذين تعهدوا شؤون جماعتهم في دار السلام كديونيسيوس التلمحري († ٨٤٥) والمفريان اغناطيوس ابن قيقي الذي قصد القائم بامر الله (٩٩١ــ١٠٣١) فحاكه وقرّر بانه ليس لسوى جاثليق الناطرة ان يركز في بغداد. وان للمفريان ان يتقلّد رعيته البغدادية تارةً فاخرى. والمفريان ديونيسيوس موسى الذي انحدر الى بغداد سنة ١١٤٢ لزيارة رعيته فاكرمه عبد يشوع الجاثليق واتحفهُ ببدلةٍ ومَضْنفةٍ وعكّازٍ. والمفريان اهرون ابن المعدني الذي ارتحل الى بغداد سنة ١٢٣٧. والمفريان غريغوريوس ابن العبري الذي زار مكيخا الجاثليق فاحتفى بهِ وأهدى اليه حلّة حبريّة بيضاء. ثم نزل ثانيةً الى بغداد عام ١٢٧٣ ودشّن فيها لطائفته السريانيّة كنيسة جديدة وكرّس المِيرون ورسم جملة من الشمامسة في كنيسة مار توما سنة ١٢٧٧

وبعد ابن العبري توالت الحروب وتفاقمت الفتن في بغداد وتتابعت على النصارى اشكال النكبات والآفات حتى أكل القويُّ الضعيف وفتك الكبيرُ بالصغير وكاد يمّحق المسيحيّون وينقرض ذكرهم من تلك العاصمة.

فنهض اذ ذاك الاحبار الرومانيّون نهضة الابطال واوفدوا الوفود والقصّاد والمرسلين وتذرّعوا بكلّ الوسائل لإرشاد تلك البقيّة والإقبال بها الى حظيرة البيعة البطرسيّة. وكان السريان اوّل من انضمّ اليها في الربع الاول من القرن السابع عشر على انه في نواحي السنة ١٦٢٦ قصد بغداد ثلاثة رهبان كبوشيّين واستحصلوا الرخصة بمساعي الدولة الفرنساويّة في تشييد منزل ومصلّى لقضاء فروضهم الدينيّة. وطفقوا يدرسون اللغة العربيّة والتركية والفارسيّة فأحكموها واتقنوها واستسهلوا التكلّم بها وجعلوا يرشدون المسيحيّين ويلقّنونهم مبادئ الديانة الكاثوليكيّة فأثمروا ثمارًا شهيّة. وكان السريان باكورة المنضمّين اليهم فان ثلاثين بيتاً منهم قبلوا الايمان الكاثوليكي على يدهم. ولمّا توفي قسيسهم السرياني سنة ١٦٣٦ بقي الاب يوسطس رئيس الكبوشيّين يدبّر امورهم الروحيّة. واقتصّ اثارهم زهاء سبعين او ثمانين بيتاً من الناطرة (١

١) اطلب الآثار الخطية للاب انطون رباط اليسوعي (ص ٥١٣ عد ١٨) وتاريخ السيد

ولم يكتف المرسلون الكبوشيون بذلك بل أنشأوا مدرسة ابتدائيّة انضمّ اليها نحو خمسة وعشرين طالباً اخذوا عنهم العلوم الدينية وغدوا قدوة لاقرانهم في الكثلكة. فنامذ ذاك عدد الكاثوليك حتى صاروا على ما هم عليه في هذا اليوم

٢ القنصلية الفرنساوية في بغداد

لم تكن حاضرة الخلفاء العبّاسيّين في اول الامر مركزاً لمناصل الدول الاوربية. واوّلُ القنصليات واقدمها في العراق هي القنصلية الفرنساوية وكان اصحابها يقيمون بادئ ذي بدء في البصرة. على ان المركيز دي ڤيلنوف (de Villeneuve) السفير الفرنساويّ في القسطنطينيّة كتب عام ١٧٢٩ الى الكونت موريا (Maurepas) وزير الملكين لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر (١٧٠١ــ١٧٨١) ان الباب العالي يستصعب انشاء قنصليّة فرنساوية في البصرة او في بغداد. فكتب اليه موريا يذكرهُ ان نوانتل (de Nointel) (١ السفير كان قد رُخّصت لهُ الحكومة العثمانية عام ١٦٧٣ في ان يسمّي رئيس المرسلين في البصرة قنصلاً. وبناء عليه حصّل الموسيو دي ڤيلنوف ذلك المنصب عينهُ لرئيس الرهبان الكرمليّين الذين نابوا منساب الاباء الكبوشيّين في بغداد. فأصبح اولئك الرؤساء ممثلين للدولة الفرنساوية منذ اذٍ في البصرة وفي بغداد معاً. وكتب الاب بولس اغوسطين في ٣٠ ايار ١٧٢١ ان رتبة القنصليّة قد تأيدت منذ عام ١٧٢٠. واوّل من ثوى منهم بغداد كان الاب يوسف ماري الكرملي سنة ١٧٢٢

وطالت هذه الحال حتى السنة ١٧٣٠ فسُمّي السيّد عمنوئيل بيلّه (Em. Bayl-let) الكرمليّ مطران بغداد قنصلاً عاماً للدولة الفرنساويّة وكان قد وصل الى تلك المدينة سنة ١٧٢٩ وخلف السيّد ڤارليه (Varlet) في المطرنة والقنصليّة معاً. وسار الى الهند وفاز بكتاب توصية من والي برندشري الى احمد باشا والي بغداد فانعم عليه في ١٤ تموز ١٧٣١ بفرمان يرخّص له ان يبتني مصلّى لرهبنته (٢

افرام نقاشه (ص ٢١)

١) سُمّي المركيز دي نوانتل سفيراً في الاستانة سنة ١٦٧٠ وتوفي عام ١٦٨٥

٢) اطلب تاريخ بغداد للاديب حبيب شيحا (ص ١٠٦) طبع القاهرة سنة ١٩٠٨

وفي السنة ١٧٤٢ سمّاه لويس الخامس عشر ملك فرنسا قنصلاً عامّاً لدولته في بغداد وهو اوّل القناصل الفرنساويين الذين سكنوا تلك المدينة. فأسّس الرسالة الكرملية وأيّدتها الحكومة العثمانيّة اجابةً الى طلب دي ڤيلنوف السفير الفرنساوي واعتبرته بمثابة رئيس للرسالة وقنصل رسميّ لفرنسا. وكان الكرمليّون في اوّل امرهم يدرسون خصوصاً الطبّ ويعتنون بمعالجة المرضى. وجعلوا منزلهم محطّ رجال القادمين والرائحين من الاوربيّين وعُرف في البصرة الموسيو مرتنڤيل (Martainville) قنصلاً للدولة الفرنساوية في تلك البلدة وتوفي عام ١٧٤١

امّا السيّد عمنوئيل فحلّت وفاته سنة ١٧٧٣ فجاء اخلافه وحازوا منصبه ووسّعوا نطاق رسالتهم وازداد عدد الكاثوليك بنشاطهم وغيرتهم وانشأوا مدرسة علّموا فيها القراءة والكتابة وتمتّعوا بالهدوّ والسكينة قبل ان تحوّل الحكومة التركيّة الحرية للنصارى في بلادها (١

٣ القنصل روسّو

هو جان فرنسوا روسّو (J.F. Rousseau) ابصر النور في اصفهان في ١٠ تشرين الاوّل ١٧٣٨ وكان والده جاك بروتستانتيًّا قصد بلاد الفرس منذ السنة ١٧٠٥ فأكرم مثواه الشاه حُسين وخلع عليه الخلَع الفاخرة يوم عرسه. ولمّا ترعرع ابنه جان وضعه في مدرسة الآباء اليسوعيّين باصفهان واعتمد عليهم في تخريجه مع العلوم بمبادئ الديانة الكاثوليكيّة حتى تثبّتت حقائقها وانضمّ اليها. وعام ١٧٥٦ انطلق روسو الى البصرة معوّلاً على القيام بخدمة الدولة الفرنساويّة وتولّى سنة ١٧٦١ الكتابة عند رئيس الصيارفة. وكان خبيرًا بالجواهر الكريمة مضطلعاً باللغات الشرقيّة. وأدّى خدماً جلّى للسيّد عمنوئيل بيله مطران بابل وقنصل فرنسا المذكور آنفاً. ففوّض اليه عام ١٧٦٢ ان يراسل بلاد العجم والهند فانشأ علائق تجاريّة مع كريم خان نائب سلطان العجم سنة ١٧٦٦. ثم شخص الى شيراز مرّتين سنة ١٧٦٨ وسنة ١٧٧٠ وفاز فوزًا باهرًا في كلتا الرحلتين وحاز اسماً طيّباً

١) اطلب تاريخ التجارة الفرنساوية في المشرق في القرن الثامن عشر. تأليف بولس ماسون (Paul Masson) (طبع باريس سنة ١٩١١ ص ٥٣٥-٥٥٥)

ولما كانت السنة ١٧٧٢ فُوِّضت الى عهدته وجدارته وكالة قنصليتَي بغداد والبصرة معاً فقام بمنصبه خير قيام ودافع عن حقوق النصارى بكلّ استطاعته حتى اصبح موئلاً يعتمدون عليه ودستوراً يرجعون اليه . ثم سافر الى فرنسة سنة ١٧٧٦ وزار باريس في كانون الثاني ١٧٨٠ فاحتفى به الملك لويس السادس عشر وأثنى على خدمه الجمّة وأسنى اليه مائة الف فرنك ونصبه قنصلاً للبصرة

وفي ٣١ تشرين الثاني ١٧٨٢ سار الموسيو روسّو الى بلاد العجم مستصحباً اندراوس ميشو (M^r Michaux) وجوفرا (Geoffroy) كترجمان وكنشلير . ثم عاد الى البصرة . وكان قد سبق لروسّو عارفةٌ كبرى مع سليمان باشا والي بغداد فصمّم الباشا ان يكافيئه على صنيعه فسوَّغ له الانتقال من البصرة الى بغداد في ٩ شباط ١٧٨٤ واجاز له الاقامة فيها رسمياً اذ لم يكن يؤذَن للقناصل الفرنساويين الى ذلك العهد ان يجعلوا مركزهم الّا في البصرة كما أسلفنا . وكانت مواطاة روسّو مع ولاة الحكومة العثمانيّة والفارسيّة والهنديّة على اوفق ما يُرام . فدارت الايام دورتها وتبدّلت الاحوال حتى أبى طلب القنصل بجعل بغداد مقام قنصليّة عامّة لدولته واخلافه من بعده اقراراً بجدارته وفضله وجزاء لمعروفه . فاستقبل القنصل ذلك الانعام بحفاوة ونشط الى القيام بمنصبه بكلّ همّة

وحدث في تلك الغضون ان الجنود الفرنساويين دخلوا القطر المصري فأمسى موقف روسّو حَرِجاً سنة ١٧٩٨ وعلى رُغم محبّة سليمان باشا وصداقته له أُوقف القنصل ونُهبت امواله وأُوثق وأُنفي الى ماردين التابعة لبغداد . ذلك لانه أبى ان ينكر جنسيّته الفرنساويّة ويتظاهر بجنسيّة تركيّة او فارسيّة . بيد ان صديقه سليمان باشا تذرّع بكلّ الوسائل ليساعده في نكبته عربوناً لشدّة اخلاصه ومودّته فتمكّن من النجاة واطلاق سبيله بعد احد عشر شهراً قضاها في المنفى . ثم توجّه الى حلب سنة ١٨٠٣ وفي السنة التالية عاد الى بغداد وتوفي اخيراً في حلب في ١٢ ايار ١٨٠٨

وكان رحمه الله ممّن وُهبوا ذكاء عجيباً وقريحة خصبة . أنفق زماناً في الدرس والمطالعة حتى نبغ في التركيّة والفارسيّة والارمنيّة والعربيّة والايطاليّة والبرتغاليّة واختبر احوال الشرق وعوائده وتجارته . وأدّى خدماً مشكورة للسيّاح الفرنساويين القاصدين تلك الامصار كتيوبير وباجيس وميشو وبوشان واوليفيه وغيرهم . وساعد

المرسلين الفرنساويين بكل طاقته. وخلّف للادباء تركة علميّة مفيدة وتآليف بالارمنيّة والفرنسيّة والفارسيّة والعربيّة

واشتهر بعده ابنه جان الذي صار قنصلاً في البصرة في ٢٧ شباط ١٨٠٥ وتولى بعد سنتين كتابة اسرار السفارة الفرنساوية في طهران. وفي ٢٩ تشرين الاوّل ١٨٠٨ نُصب قنصلاً عامًّا في حلب. ثم انتقل في ١٢ ايلول ١٨١٤ الى قنصليّة بغداد العامّة. وتوفي في طرابلس الغرب عام ١٨٣١

وكان كأبيه روسو متبسّطاً في العلوم متبصّرًا في الامور متوسّعاً في الخبرة ألّف كتباً شتى واحتوى على مخطوطات نفيسة انفق في سبيل جمعها اموالًا طائلة اشترت منه الدولة الروسيّة خمسمائة مخطوط من الصحف الشرقيّة طُبع فهرسها سنة ١٨١٨(١

٤ السيد اغناطيوس ميخائيل جروه والقنصل الفرنساوي في بغداد

قد آن الاوان لسرد ما تحرّيناه من تسطير اخبار الموسيو روسو النبيل مُفيضين في ذكر حسناته وتسجيل مآثره من مآثره التي اصطنعها عند غبطة السيد اغناطيوس ميخائيل جروه بطريرك السريان الكاثوليك يوم حصل في اخطار مُوبقة وحار في كيفيّة التملّص منها. ومن المعلوم انّ هذا الحبر الجليل كان ارتدّ عن اليعقوبيّة وهو مطران على حلب (اطلب تاريخهُ في المشرق ٩ [١٩٠٠]: ٩١٣ــ٩٢٦). واليك خلاصة الخبر نقلًا عن سيرة حياته التي كتبها بيده المباركة

ذلك ان هذا الحبر الانطاكي الجليل لما انتخبته الطائفة السريانيّة جماء بطريركاً عامًّا لها وأوفد اليهِ جماعةُ ماردين مخيطةً مختومة بتواقيعهم لم يرَ الّا الاجابة الى إلحاحهم فقصد ماردين عام ١٧٨١ وخرج الاساقفة والاكليروس وجمهور الشعب لاستقباله برونق عظيم وانزلوه في الكنيسة الكبرى واخذوا يعلنون ويصرّحون بانهم راضون مقتنعون بكل ما يبته ويرسمه. ثم مضوا به الى دير الزعفران في جمهور الاساقفة يتقدّمهم السيّد بطرس عازر مطران الارمن الكاثوليك والسيد شمعون مطران الكلدان والاب اغناطيوس الراهب الكرملي المرسل في ماردين وتوجّوه في ٢٢ كانون الثاني ١٧٨٢ بطريركاً انطاكياً وفقاً للطقس السرياني الكاثوليكي. بيد انه ما عتّم ان اختلف عليه اسقفان اخوان وهما الاسقف متى والاسقف عبدالاحد

(١ اطلب ترجمتهُ في تراجم المشاهير Nouvelle Biographie Générale, LXII

طبعاً بتركة البطريرك جرجس الرهاوي المتوفى سنة ١٧٨١ وحالفهما في ذلك مطران القدس فطفقوا يسعون في تشكيس البطريرك المغبوط ومعاكسته حتى بلغ منه اليأس مبلغه فقرّ الى الموصل فبغداد. قال البطريرك (ص ١٢)(١ من سيرة حياته المشار اليها):

«لما نظر هذان المطرانان ومطران القدس ما صار اخذوا يضطهدوننا ويشتكون علينا وعلى كل مَن تبعنا امام الحكّام. فسعى ابناء جماعتنا الكاثوليكيون الذين صار عددهم اكثر منهم واستقرضوا مبلغاً عظيماً باسمي دفعوه للحكام وسألوهم ان يكتبوا الى والي بغداد الراجعة ماردين الى حكمه ليرسل امرًا من لدنه ويقيمني بطريركاً على دير الزعفران... ثم دفعوا له مبلغاً آخر ليكتب الى الدولة العثمانية ويستحصل لي فرمان البطركيّة... وبعد ثلاثين يوماً قاسينا فيها الاضطهاد حضر الامر (من سليمان باشا) والي بغداد الى حاكم ماردين (عيسى بك) يفوّض اليه ان يلبسني الفروة (الكرك) ويقيمني بطريركاً على دير الزعفران وعلى السريان كافة. (ص ١٣) وكتب ايضاً الى الباب العثماني ليحضر لي الفرمان. ففعل الحاكم كما أمره واخذوني باحتفال عظيم الى الكنيسة الكبيرة ألوف امامي والوف ورائي (٢ ... واخذوني الى دير الزعفران... حيث رسموني بطركاً عليهم (في ٢٢ كانون الثاني ١٧٨٢) بحضور مطراني الارمن والكلدان والبادري اغناطيوس مرسل ماردين والوف الوف من الجماعات...

«غير ان المطرانين الاخرين... ذهبا مع جملة رهبان الى طور عبدين ليهيجوا اهالي الجبل علينا غير حاسبين للحكّام حساباً ولا لوالي بغداد ولا للسلطان نفسه.. فالتزمنا نحن واتباعنا ان نوقد في اماكن خفيّة وننتقل في الليل من مكان الى مكان... حتى يوم الاربعاء من اسبوع الآلام... وفي الغد (ص ١٥) اي يوم الخميس العظيم تجمهروا وهجموا على الكنيسة ليقتلونا. ولكن الله خلّصنا من يدهم

«ثم ان احد ذينك المطرانين (وهو المطران متى) رسم حالًا (ص ١٦) اربعة رهبان اساقفة وامرهم ان يصيّروه بطركاً. ثم ارسل اخاه المطران (عبد الاحد) الى القسطنطينيّة فاستغاث ببطرك الارمن ودفع له مبلغاً وسأله ان يمنع خروج الفرمان

١) الارقام تدل على صفحات كتاب سيرة حياته التي خطها يده

٢) الطب مجلة المشرق (٣ [١٩٠٠]: ١١٤ و١٢٣)

باسمي ويخرجه باسمه ... مع انه كاد يستخرجهُ باسمي والي بغداد (١ وحضرة جلالة الجي (سفير) فرنسا الذي سعى في ذلك بكلّ غيرة مقدَّسة مع حضرة النائب الرسولي طبقاً لطلب نيافة المجمع المقدس...

«فتقلّب بطرك الارمن بنفوذه وأبطل سعيَ الوالي والقنصل والنائب وجميع اصحابنا. وأخرج الفرمان باسم البطريرك (متى) الدخيل وساعده على ذلك بطرك الروم المشاقّ وشهدا عليَّ في الباب العثماني بأني ظالم ومتعدٍّ فضلاً عن كوني كاثوليكيًّا

«فلم يعد لنا مهرب من يدهم (ص ١٩) لان البطرك الدخيل ومطارنتهُ انتقلوا حالًا الى ماردين واحضرونا واحضروا مطارينا بكلّ اهانة واحتقار امام حاكم المدينة وقرأوا الفرمان وسجّلوه وأمرونا ان نسلّمهُ الدير وبقيّة الكنائس

«وبعد ان حبسونا اربعين يوماً ارسل الحاكم فاخرجنا من السجن (ص ٢٠) وبعثنا الى الدخيل مع جنود كثيرين بسيوف وعصيّ واهانات عظيمة فحبسنا عنده ثلاثة عشر يوماً كان يحاول ان يقتلنا خفيةً بواسطة الناس من طور عبدين... فلمَّا اطَّلع بعض المحبّين على ذلك دفعوا مبلغاً الى الحاكم فأخرجنا من حبس الدخيل وحبسنا ثانية عنده وبقينا خمسة شهور حتى عُزل الحاكم وجاء غيره. فقدَّم له الدخيل مبلغاً وسأله ان ينفيني وحدي ويسلّمه مطاريني ورهباني ليصلّوا وراءهُ ويحلقوا اكاليلهم (٢ فاجاب الحاكم الى طلبه واوثقني بالإنجيل مدَّة ثمانية أيام (ص ٢١). فأرسلتُ اليه من أطعمه مالًا ليرتضي ان ينفيني الى الموصل فارتضى. ولمَّا وصلت الى الموصل صرتُ كأني عادم الحياة تحت ترسيم الوالي ستين يوماً

«فارسل الدخيل وهيَّج عليَّ والي بغداد (ص ٢٢) وعرض عليه اموالًا جزيلة لكي يأخذني من الموصل ويجيئني عنده في بغداد. فاجاب الوالي الى طلبه وارسل اخذني بالكلك (الطوف) في دجلة... وبعد وصولنا الى بغداد حتم الوالي عليَّ ان ابقى هناك وطلب مني خمسة وعشرين الف غرش حتى يرسل تكوارًا الى الدولة

---

١) كتب هذا الوالي ثلاثة صكوك بتأييد السيّد ميخائيل بطريركًا واستوفى كلفة البراءة ثلاث دفعات. لكنّ بطريركي الارمن والروم تمكّنا من تأجيلها واصدارها باسم متى الدخيل (تاريخ السيد افرام نقاشه ص ٢٩٢)

٢) كانت عادة الاساقفة والرهبان السريان ان يحلقوا شعر رؤوسهم على شكل اكليل كما شهد بذلك كتبة النساطرة

ويبطل فرمان الدخيل ويخرجه باسمي. ولكن لما تحققنا انه لا يقدر على انجاز ما قاله عقدنا جمعيّة في دير المرسلين (الكرمليّين) للمشاورة في الامر وسجلنا القرار في كنشلارية الموسيو روسّو قنصل الدولة الفرنساوية ودفع صورة المشاورة بيدنا باللغة الفرنساوية»

(قلنا) وقد توفّقنا للحصول على خمس عرائض بين صحف دير الشرفة في هذا الصدد يحقّ ان تُنقش بحروف ذهبيّة تخليدًا لذكر الموسيو روسّو القنصل الفرنساوي العام في بغداد والموسيو بوشان وحاشيتها ووجهاء الكاثوليك وقد ارسلوها الى المجمع المقدّس في رومية للدفاع عن البطريرك ميخائيل المغبوط نشرها بكل ارتياح اقرارًا بفضل هذه الدولة الكريمة وسفرائها وقناصلها الاماجد ناشرين ألوية الشكر والثناء على غيرتهم وحسناتهم الجمّة. واليك نصّ العريضة الاولى بحروفها :

«هذه صورة المشاورة التي عملناها في بغداد بحضور الموسيو روسّو بالبوز(١ فرنساوي على شغل حضرة البطريرك السرياني اغناطيوس ميخائيل بطرك انطاكية (وارسلناها الى المجمع المقدّس في رومية

«اولًا : تعلم سعادتكم الشريفة ان سيدنا البطريرك اغناطيوس ميخائيل جاء الى بغداد بمعرفة الاختيارية الكاثوليك وباس والي بغداد. ومرادهم ان يخلّصوه من الاضطهادات التي نالها منذ سنتين من يد المسلمين والمراطقة. لانهُ سابقًا اقرّ احد الاختيارية بعشرين الف روبي (٢ الى حضرة الباشا حتى يجيب البراءة ويثبته في كرسيّ البطركية. ولكن سيدنا البطرك خاف جدًّا من ان الباشا يطلب منه هذا المبلغ المذكور. فلذلك طلب البطرك من باليوز بك (الموسيو روسّو) الفرنساويّ في بغداد ان يتشاوروا كيف يعملون ويدبّرون. فاجتمعوا في ٣٠ آب وقرّروا اوّلًا : ان هذا المبلغ يصعب جمعه من الفقراء السريان الذين اعطوا سابقًا خسائر باهظة في سبيل الايمان. والآن عليهم ديون عظيمة. ثانيًا : ان كان سيدنا البطرك بصونة المجمع المقدّس وقوته يقدر يدفع هذا المبلغ فلا يُعرَف هل يقدر حضرة الباشا يجيب له الفرمان من الدولة العلية او تذهب الدراهم باطلًا. ثالثًا : وان قدر حصّل الفرمان فالمراطقة بقوّة الارمن والمال يقدرون يغيّرونه ويجيبونه لبطرك المراطقة اذ يدفعون دراهم اكثر كما جرى ذلك مرارًا في هذا البلد. نعم طالما هذا الوزير في بغداد وحكمه يشمل ماردين لايصير تعدّي. ولكن متى تغيّر لا يمشي الفرمان لان الفرمان متعلّق بقوّة باشا بغداد

«وبعد انتهاء المشاورة تمّ القرار بان سيدنا البطرك يرجع الى حلب حتى يخلص من غضب اعدائه الذين يقدرون يجون (يجيئون) الى بغداد ويتعبونه. ونحن بعد ذلك نفتكر وندبّر لهُ

---

١) باليوز من الفرنساويّة Bailli يراد بها الحاكم ومتولّي القضاء

٢) تقابل خمسة وعشرين الف غرش

الامر لخلاصهُ ونظامهُ من باب بغداد في احسن حال وفكهُ من المبلغ الذي ارتبط به . بقي الامر اذاً مطلقاً بيد الله والمجمع المقدّس . فلذلك ارسلت اليه جميعنا هذه العبودية حتى يدبّر الامر حسب قطته

«حُرّر في بغداد في ٢٠ آب سنة ١٧٨٣ ونحن المحرّرة اسماؤنا بذيله نشهد بان هذه المشاورة صارت في حضورنا وحضور سيدنا البطرك والموسيو بوشان وكيل مونسنيور بابل والاباء الكرمليان

موسيو سينيس كنشلير موسيو ليوني . موسيو جفروا مترجمان
بيدروس كوركجي باشي شماس كوركيس بن عيسى غنيمة
بيدروس بن اسطيفان بنكالي اسطيفان (داويد)
قسطنطين بن حنا (دانا) الخوري انطون الارمني

« فهولاء جميعاً اتّفقوا كلّهم على هذه المشاورة وتحررت في ٢١ آب سنة ١٧٨٣

لويس سينيس كنشلير محررها روسو باليوز سنة ١٧٨٣

على ان الامة والرؤساء في ذلك العهد اعتادوا ان يكتبوا العرائض الرسمية اكثر من مرّة ويرسلوها بالبريد في طرق مختلفة ليثقوا بوصولها الى أصحابها ولذا نرى جمعيّة بغداد المذكورة آنفاً قد دوّنت عريضة كالسابقة اوفدتها الى المجمع المقدّس في ١٨ ايلول نقتطف منها ما يلي :

«ان المونسنيور ميخائيل جرجه بطريرك طائفة السريان بعد ما جاء الى بغداد اجابةً الى طلبات المتقدّمين من الكاثوليك في هذه المدينة الذين إعتنوا بتخليصهِ من الاضطهادات التي يمتلها منذ سنتين واجابةً الى مكتوب الوالي الذي وُعد سابقاً بعشرين الف غرش ليحصّل لهُ البراءة . . . قد وصل الى هنا في ١٤ الشهر (تموز) وتوسّل الى قنصل فرنسا والفرنساويين في بغداد واعيان الكاثوليك ليرتأوا ما هو أنسب . فاجتمعنا في ٢٠ آب امام القنصل ورأينا : ١ : انهُ يسير جمع هذا المبلغ . . . ٢ : ان الوالي لا يحصّل البراءة بتأكيد . . . ٣ ان السريان الارائقة باتفاقهم مع الارمن يقدرون ان يبطلوا الفرمان بتقديمهم مبالغ اعظم كما جرى عشرين مرة في هذا البلد . ثم انه لايسمح ان يوجد دائماً هنا والي واحد عادل كهذا الوالي المتولي بغداد وماردين فاذاً . . . حكمنا ان يعود المونسنيور الى حلب . . . »

وهذه العريضة امضاها جميع الذين امضوا العريضة السابقة وختمها : الخواجا روسو قنصل فرنسا ولويس سينيس كنشلير »

ولم يكتفِ الموسيو روسو بذلك بل اشار الى السيو يوشان وكيل مطران بابل فكتب الى المجمع المقدّس في هذا الصدد عدّة رسائل . منها رسالة اوفدها في ٨

ايلول ١٧٨٣ على طريق اسلامبول. ورسالة ثانية اوفدها على طريق حلب في ١١ تشرين الاول ١٧٨٣ ورسالة ثالثة اوفدها كذلك على طريق اسلامبول بتاريخ ٢٤ تشرين الاوّل ١٧٨٣ . فننقل من الرسالة الاولى ما يلي :

«اتشرف واعلم نيافتكم بوصول المونسيور بطربرك السريان الى بغداد الذى خلّص ذاتهُ من ايدي اعدائه. فترى نيافتكم استنادًا لما نبرى هنا كيفية امره . . . والاب الاكرم اغناطيوس (الكرملي مرسل ماردين) كان في استطاعته ان يحقق آمال هذا البطريرك ومع ذلك صيّره ان يبيد بدفع عشرين الف غرش لوالي بغداد ليحصل لهُ فرمان البطركية . . ولا نعلم كيف تخلصه من هذه الغلبة ونخاف ان تتبعها غلبة اخرى . لأنّ اخا البطرك الاناتيكيّ ذهب الى اسلامبول بعد خروج البطرك ميخائيل من ماردين. ويقال انهُ سيأتي الى بغداد ليؤيّد فرمانه ويسلّم المنسيور ميخائيل الى ايدي اعدائه القاصدين قتله. وكنا نريد ان نودّيه الى البصرة حيث يبقى بطمانينة . ولكن مكاتيب ماردين الاخيرة المحرّرة في ١٠ آب والواصلة الى المونسيور ميخائيل تبيّن ان حاكمها امسك السريان الكاثوليك وضربهم بالعصي وحلق لحية مطرانين وقسّيسين وراهبين من الكاثوليك وغرّمهم مبالغ عظيمة بدسائس المطران متى. فانتكرنا ان نضع نهاية سيدة لمسئلة المونسيور البطريرك بان الكردينال دهبرنس (C^nal de Bernis) (١ يكتب الى ملك فرنسا بحامي الرسالات ليتنازل ويصدر الاوامر الى سفيره ليطلب الفرمان من الوزير الاعظم . . وانتا نثق بان السفير ينجح ويكتب الى الوالي . . .»

«حُرّر في بغداد في ٨ ايلول ١٧٨٣»

امّا رسالة الموسيو بوشان المسطّرة في ١١ تشرين الاول فهي كالسابقة وهذا ملخّصها :

«تشرّفت ان اعلم نيافتكم في ٨ ايلول ١٧٨٣ بدخول المونسيور البطريرك ميخائيل الى بغداد. وتخلصهِ من أعدائه بعد مشقّات ومخاطر . . . احتملها لاجل الله وكنيستنا . . . فالمونسيور ميخائيل يرى دائمًا ان ينتظر اوامر المجمع المقدّس وقد تشرفتُ واعلمت نيافتكم انه لو وجد ههنا خوفًا وخطرًا من اعدائه لكان يرافقنا الى البصرة لاني مفتكر ان اذهب اليها واستمرّ فيها ستة اشهر كي اتبصّر في حال الرسالة»

اما الرسالة الثالثة فقد سطرها الموسيو بوشان في ٢٤ تشرين الاوّل ١٧٨٣ واوفدها على طريق اسلامبول وهذا ملخصها :

«تشرّفت ان ارسل الى نيافتكم على طريق حلب مكتوبين في ما يخصّ رأي وجهاء بغداد الكاثوليك عمّا يخصّ امر المونسيور ميخائيل . . . فالمونسيور ينتظر اوامر نيافتكم ونتيجة ما صار في القسطنطينية لاننا نؤمل ان الحي فرنسا يحصّل له البراءة . . .»

---

١) كان هذا الكردينال سفير دولة فرنسة لدى الكرسي الرسولي منذ السنة ١٧٦٩ وتوفي سنة ١٧٩٤ خاملاً

فمن ذلك كله يظهر صريحاً فضل الدولة الفرنساوية وجزيل اعتناء قناصلها بمسئلة البطريرك ميخائيل تعزيزاً للديانة الكاثوليكية ورفعاً لمنارها. على انهم بعد مراجعات طويلة كثيرة رأوا ان لا سبيل للبطريرك ميخائيل المنبوط الّا الهرب من بغداد. فكتب غبطته في سيرة حياته (ص ٢٤) قال:

«مكثنا في بغداد سبعة اشهر تحت الترسيم والتهديد المتواصل من الوالي. وكنّا كلّما طرق الباب نظنّ انهم قادمون ليأخذونا الى السجن. ولمّا كنا في هذه الحالة وردت المكاتيب بخروج الفرمان علينا (١ . . . وافادنا النائب الرسولي الذي في القسطنطينيّة عن لسان حضرة الالجي الفرنساوي الكلّي الغيرة ان نسعى ونهرب بسرعة من بغداد الى بلاد العجم قبل وصول الفرمان . . . فحزنا في امرنا . . . ثم جمعنا سرّاً بعض التجار الكاثوليك واستشرناهم في الامر لننجو من الخطر. وبعد حيرتهم العظيمة ومشاوراتهم الكثيرة اتّفقوا على ان يقرضونا مبلغاً شفقةً علينا . . . لنهرب من بغداد. وتمّ الامر كما اشاروا . . .

«فالتزمت ان اخرج من بغداد ليلاً مع (زكريّا وتوما) شمّاسيّ متنكّراً متردّياً بثوب احد العرب ومشيتُ مع رفيقين حتى وصلنا الى خارج المدينة ومن هناك ركبنا الجمال واستكرينا ها مع ثلاثة اشخاص بمائة ذهب . . . وسرنا في طريق القفر . . . وقاسينا من التعب والجوع والعطش والمخاوف ما لا يعلم به الّا الله وحده حتى أيسنا من الحياة. وكانت الدماء تجري كالينابيع من جراحات جسدي لوعورة المسير خوفاً من ان يصل الفرمان الى بغداد فتلتزم ان نعود اليها. وعلى هذا المنوال قطعنا مسافة ستّين يوماً بخمسة عشر يوماً حتى وصلنا الى تدمر . . . ثم الى القريتين فالشام . . . حتى وصلنا الى جبل كسروان ونزلنا في دير في قرية بيت شباب يوم السبت العظيم ليلة احد القيامة ٣١ آذار ١٧٨٤ . . .»

---

١) كتب البادري روفائيل الدومنكي من الموصل الى البطريرك ميخائيل المنبوط ان قد صدر الامر بنفيه الى «وان» مع ثلاثين شخصاً من حاشيته. وكتب السفير الفرنساوي والنائب الرسولي والقس الياس شدياق السرياني يؤيدون ذلك ويقولون ان المطران عبد الاحد شقيق البطريرك الدخيل يصل عمّا قليل الى بغداد صحبة رجل من قبل الدولة لتنفيذ الحكم والحثّ على البطريرك المنبوط بالفرار من بغداد عاجلاً (عن رسالة البادري روفائيل المصونة في دير الشرفة).

بهذه الوسيلة تمكن القنصل روسو الهمام ان يحلّ عقدة تلك المشكلة المعضلة ويخلّص البطريرك المغبوط من دسائس خصومه ومن القتك به. على ان البطريرك توفّق بعد ذلك الى انشاء دير سيّدة النجاة في شرفة درعون سنة ١٧٨٦ حيث قضى اواخر عمره باعمال الغيرة والقداسة وانتقل الى جوار ربّه في ١٤ ايلول ١٨٠٠

٥ السريان الكاثوليك في بغداد الى هذا العهد

ظلّ السريان الكاثوليك يقتضون فروضهم الدينيّة في كنيسة الآباء الكرمليّين ويعتني بخدمة نفوسهم قسوس سريان يرسلهم السادة البطاركة الى بغداد والبصرة كلتيهما. وفي ١١ ايار ١٧٧٨ اوفد الحبر الاعظم مار بيوس السادس منشورًا الى السيد ميخائيل جروه يفوّض اليه رعاية السريان في الرها وديار بكر وماردين والموصل وبغداد والبصرة. فما كان من السيّد ميخائيل الّا الاجابة الى الرئيس الأعلى. واخذ يقيم في كل من البلاد المذكورة كهنةً سريانيّين او يفوّض الى احد الرهبان المرسلين القيام بخدمة ابنائه الروحيّين. وفي ٣ كانون الاوّل ١٧٩٣ كتب البطريرك المغبوط الى السيّد بشارة اسقف الموصل ان يرسل الى البصرة كاهنًا موصليًّا فامتثل الاسقف امرهُ وارسل الى بغداد عام ١٧٩٥ كاهنًا موصليًّا اسمه القس ميخائيل بن عُبيد(١

ولما انتقل السيّد ميخائيل جروه الى الاخدار السماويّة وتولّى السيّد يوليوس انطون الآمديّ النيابة الرسولية اوفد الى بغداد والبصرة الربّان توما الماردينيّ في منشور مؤرّخ في ١٨ كانون الثاني ١٨١١ ليتعهّد شؤون ابناء الملّة فيها فمكث ثمّ ثلاث سنوات وعاد الى دير الشرفة

ثم أُنيطت رعاية بغداد والبصرة بالسيّد بشارة اسقف الموصل كما ذكرنا. فكان يتجدر الى بغداد مرارًا يتفقّد احوالهم ويناضل عن حقوقهم ويوطّدهم في الايمان المقدّس ولما تولّى السيّد غريغوريوس عيسى محفوظ ابرشيّة الموصل عام ١٨٣١ نهج نهج سالفه في رعاية الابرشيّة البغداديّة وتيسّر له ان يبتني فيها مصلّى دشّنه في ٢ كانون الثاني ١٨٤٢ وأقام ثمّ قسيسًا ولّاه خدمة الطائفة

وظلّ الحال كذلك الى عهد البطريرك اغناطيوس انطون سمحيري († ١٨٦٤)

(١) راجع في المشرق (١٨ [١٩٣٠] :٢١٧-٢١٩ و ٤٧١-٤٨٠) رسالةُ البديمة الى اهل البصرة مع رسالة المجمع المقدّس اليه

فعقد العزم على مكافأة البغداديين على سالف حسناتهم ولاسيما على سباقهم في الانضمام الى الايمان الكاثوليكي وعلى بذلهم في كل آن المبرّات لمن قصدهم كما ألمنا . فنصب لهم السيد اثناسيوس روفائيل جرخي الماردیني مطراناً في ٢٨ ايلول ١٨٦٢ وهو بكر مطارنة تلك الابرشيّة فشاد فيها كنيسة جميلة على اسم والدة الله تمّ تكريسُها في ٨ كانون الاوّل ١٨٦٣ . وقرّر الآباء في سينودس الشرفة المعقود عام ١٨٨٨ ان تكون تلك الابرشيّة في جملة الكراسي المتروبوليتيّة السريانيّة الاربعة وهي الموصل وحلب ودمشق وبغداد

ولما توفي السيد اثناسيوس روفائيل في ٢١ نيسان ١٨٩٠ تولى سياسة الابرشيّة السيّد ربّولا اقرام رحماني الموصلي (البطريرك الحالي سعيدًا) مدّة اربعة اعوام فانتقل في اوّل ايّار ١٨٩٤ الى كرسيّ حلب

وفي ١٦ حزيران نُصب السيد اثناسيوس اغناطيوس نوري الماردیني مطراناً للابرشيّة فساسها بغيرة وحكمة واعتنى بتحسين احوالها الروحيّة والزمنيّة حتى انهُ تيسّر له بعد مراجعات طويلة وكلف كثيرة ان يتوجّه الى كلكتّه عاصمة الهند في ٢٩ ايلول ١٨٩٩ للإشراف على اوقافها وهي عبارة عن دارَين وبضع حوانيت وقفتها السيّدتان كاترينا وترازيا ابنتا سفَر لورثتهما الشرعيّين عام ١٧٩٣ وهولاء الورثة الكرام وقفوها لفقراء الكلدان والسريان والارمن مشترطين ان يتوزّع ريعها على الفقراء وعلى حاجيات الكنائس والكهنة . فتوصّل السيد الموماً اليهِ في رحلتهِ هذه التي استغرقت اربعة شهور الى تعزيز تلك الاوقاف حتى صار ريعها السنوي يتوف على المائتي ليرة ذهبًا (١) . وقد ابدى السيد المشار اليه غيرةً تُذكر في سبيل تشييد معبد للكرمليّين في العمّارة الواقعة على ضفّة دجلة فان البادري ماريا جوزيف لما تعذّر عليه امر ابتنائها سنة ١٨٨٥ وحار في امره توسّل الى السيد اغناطيوس ان يقصد في ذلك والي بغداد صديقه فاجاب الوالي الى طلبته وحصل على رخصة البناء من العاصمة اكراماً لخاطره فكتب اليه القنصل الفرنساوي رسالة ثناء وشكر لتمكّنهِ من حلّ ذلك المشكل الذي استغرق خمس سنوات

(١) اطلب سير احبار ابرشية بغداد في كتاب « السلاسل التاريخية » للنيكونت فيليب دي طرّازي

وفي ٢٤ تشرين الثاني ١٩١٢ رُقي السيد اثناسيوس جرجس دلّال الدمشقي الى مطرانيّة بغداد وهو الذي ما برح يسوسها بارائه الصائبة وتدبيراته السديدة باذلاً في سبيل رقيها اطيب المساعي حتى اصبحت القلوب كافة معقودة على حبهِ واعتبارهِ. وتشتمل اليوم الابرشيّة البغداديّة على مدينة بغداد والبصرة والعمارة والعشّار وفي كل منها كنيسة لابناء الملّة

ويطيب لنا ان نجعل سلك الختام لكلامنا الثناء العاطر على ما بذله في سبيل تعزيز الكاثوليك عموماً في تلك الحاضرة القناصلة الفرنساويون النبلاء الذين خلفوا المسيو روسو الطيب الذكر ولاسيما السيد هنري پونيون(H. Pognon)الشهور بغرط حبهِ وجزيل غيرته على صوالح الكاثوليك فضلاً عن رسوخ قدمه في اللغات الشرقية وخصوصاً السريانيّة اذ كان يتحدّث بها كلّما زارهُ أحبار هذه الطائفة . وقد نشر فيها كنوزاً ادبيّة اكتشفها بسعيهِ وتعبه في اطراف العراق وما بين النهرين (١ ومكث هذا العلّامة المجيد قنصلاً عامّاً لدولتهِ الشريفة في بغداد حتى السنة ١٨٩٧ . فتولى بعده الموسيو رويه (G. Rouet) وكان بمكانةٍ من الفضل والشهامة بصيراً بالامور نهض باعباء منصبه اتمّ نهوض ودافع عن حقوق الكاثوليك دفاع الابطال. ويشغل في عهدنا هذا المنصب الشريف في بغداد المسيو ميغريت (Maigret) الفاضل

. واشهر الأُسر السريانيـة البغدادية العريقة في القدم والكرم معاً هي اسرة الخواجا توما اندريا وابن اخيه نعوم الطيب الاثر واخوته الخواجات ريشا واسطفان وانطون ثم اسرة الشماس انطون واسحق الياس جبّو. واسرة الخواجا انطون جبرائيل مارين الذي تولى منصباً مهمّاً في القنصلية الانكليزية وشقيقه يوسف الذي توطّن البصرة وتبرّع ببالغ طائلة لابتناء كنيستي البصرة والعشّار . ثم اسرة يوسف نعمان ونجليهِ توفيق وهنري . ويعقوب افندي كوما المحامي المشهور . والشماس متى الشماس يعقوب . واسرة باكوس ومرمرجي ويوسف عبد الاحد وجرجي . وعُرف في العمارة بفضلهم وسخائهم أنجال الخواجا حنا الشيخ . واشتهرت في البصرة أسرة جرجس ايلو ويوسف عبيده ويعقوب مارو وغيرهم ممّن مدّوا يد المعروف والاحسان لكل مشروع خيري . زادهم المولى تعالى نموًّا وتوفيقاً بفضله وكرمهِ

١) اطلب مجلة المشرق ١٦ [١٩١٣]: ١٤٥